بخفاق جناح ذات تصويب وتصعيد وألحان وتغريد
كأن البرق في حيزومها حل فلا وعر يقاديها ولا سهل
ولا غرق ، إذا تسترق السمع فتأتي بنبأ قاطنة السبع
فسبحان الذي أنشأ منشيها فسواه وأسرى سبل العلم لذي الجهل فأغناه

أرح نفسك إن أصبحت في ضفة (لبنان)

وروحها برشف من لمى حور ووجدان
ففيها صفوة العيش ولا منكر للطيش ... الخ

وبعد ، فلعلني أفصحت في مقالي هذا عن معنى (البند) وعمن اقتبس ، ومن أجل فيه ، وأن مقتبسيه هم العراقيون لا أهل (الحويزة) على ما يقول الأستاذ الشهابي ، وأنه نوع من الشعر ، ومن بحر (الهزج) وليس هو من النثر الشعري ، أو من السجع على ما يقول الكثيرون

بغداد محمود الصبطي

مقدمة الكتاب « هتلري » :

برتراند رسل

الفيلسوف الإنجليزي المعاصر

للأديب عبد الجليل السيد حسن

ذهن عجيب جبار ، ينشد الوضوح في كل شيء ، لا يقبل إلا ما يرضاه عقله ويهديه إليه فكره . وتفكير حر إلى أبعد حدود الحرية . طالما أفزع الدولة بل العالم . وجرى غاية الجرأة يقول ما يعتقده حقا وما يراه صوابا ، وإن أحفظ عليه نفوسا كثيرة وأثار على شخصه عاصفة هوجاء ، أدت به إلى السجن ، وأفقدته كرسيه في الجامعة . . ولكنه لم يبال . وعاطفة زاخرة جياشة بجانب هذا التفكير العقلي البحت ؛ فهو لا يعيش في برجه العاجي لا صلة له بالواقع ، فحينما يرى شباب أوربا يساق إلى الحرب استجابة لرغبة حفنة تنتفع من الحرب وتعيش على « الموت » ، يأبى عن نفسه رداء الفكر المجرد ، لينزل بعاطفة قوية عنيفة ، يحارب الحرب ويصرخ أن قفوا هذه المجزرة . وإنسان صبور جلد ، لا يهدأ له بال ولا يقر له قرار ، لا يمل العمل ، ولا ينقطع عن الترحال ؛ جاب البلاد خابرا دارسا من أوربا إلى أقصى الشرق إلى الصين ، وجرب كل شيء ، جرب السجن ، بل جرب الموت !

* * *

هو الإرل برتراند أرثر وليم رسل . ينحدر من عائلة من أشرف العائلات الإنجليزية وأشهرها وأوفرها حظا من المشاركة في أمور الدولة السياسية . وهو ليس كريم النسب من جهة أبيه فقط ؛ بل من جهة أمه كذلك ، فأبوه ابن اللورد جون رسل الوزير البريطاني المشهور ، وأمه بنت اللورد ستانلي أف الدرلي ؛ فهو أرستقراطي النشأة طيب الأرومة

وقد ولد في ١٨ مايو سنة ١٨٧٢ ؛ وحينما بلغ من العمر سنتين ماتت أمه ولحق بها أبوه في العام التالي فترك يتيما وهو ابن ثلاث سنوات ، ولم يتمكن أبوه ولا أمه من تلقينه عقيدتيهما في الدين والحياة . وكانا أبوين عجيبين — وعلى غرارهما سينشأ الابن — من أحرار المفكرين ؛ فأبوه كان يميل إلى المذهب « اللاأدري » وكان صاحب مزاج عجيب ورأى غريب نأى به عن الحياة السياسية التي أرادها ، فقد رشح نفسه للبرلمان ودخله ، ولكن لما عرف عنه من آرائه الحرة كما في تحديد النسل وحقوق المرأة والمسيحية ، ولاستغلال خصومه ذلك في التشنيع عليه لم يدخل البرلمان ثانية ، ولم ينل من الحياة السياسية ما يبتغي من أمل . أضف إلى ذلك أنه كان خجولا ، ليس له من صفات السياسي شيء كثير ، بل كانت صفاته أقرب إلى الدرس والعلم منها إلى السياسة ، فكان تلميذا ثم صديقا « لجون استوارت مل » الفيلسوف الإنجليزي المنطقي الاقتصادي المعروف ، يؤمن بآرائه وينتصب لها ، وقد تخلى عن عقيدته المسيحية في سن الحادية والعشرين ورفض الذهاب إلى الكنيسة في يوم عيد الميلاد . وحينما مل السياسة أو بالأحرى ملته هي خصص نفسه لتأليف كتاب في « تحليل العقيدة الدينية » نشر بعد وفاته ، وقد كانت زوجه تشاركه هذه الآراء ، وقبل أن يموت أوصى بتربية برتراند رسل وأخيه تربية حرة ، لا تقيد فيها بدين معين ، ولا

عقيدة من العقائد ، فقد أرادها أن يكونا اثنين من أحرار الفكرين مثل أبويهما؛ ولكن المحكمة أبطلت هذه الوصية استجابة لرجاء الجد ، وأخذ برتراند رسل إلى أبيت أجداده سنة ١٨٧٦

لم يعرف رسل شيئا عن عقيدة أبويه بالطبع ، إلا حينما بلغ الحادية والعشرين ، وحينذاك وجد أن وصية أبويه قد طبقت على رغم جهود الجدين ، وأنه قد سار نفس المسار الذى سار فيه أبواه ، بل وخيرا مما سارا ، وأثر فيه « مل » كما أثر فيهما تماما . ولنتابعه الآن فى تطور حياته وعقيدته

— أما جده فكان فى الثالثة والثمانين ضعيفا ، لا يذكر الطفل إلا أنه كان يراه فى محفته محمولا أو فى كتاب يقرأ ، ومات بعد مجيء رسل إلى بيته بسنتين ؛ ولذا لم يؤثر فيه جده تأثيرا يذكر . أما جدته فهى صاحبة الدور الأول فى حياته وتربيته ، وكانت سيدة غريبة؛ فقد كانت من أتباع المذهب « البرسبيتارى » الإسكتلندى (Scotch Presbyterian) وكان فى طبعها صرامة ، تأخذ أبناءها وحفدتها بالتربية الدينية ، وتكره النبيذ ، وتنظر إلى الدخان على أنه خطيئة وفى السبعين من عمرها تحولت إلى مذهب « الموحدين » « Unitarian » . وكانت تأخذ رسل كل أسبوع إلى الكنيسة وتلقنه أصول مذهب « الموحدين » فى البيت . وكانت تنزع إلى كره الاستعمار — الذى سيمقته رسل فيما بعد أشد المقت — فكانت تؤيد الاستقلال الذاتى والحكم الداخلى لإرلندا . وعلمت رسل أن يرى فى الحرب بين الأفغان والزولو « Zulu » — التى حدثت حينما كان رسل فى سن السابعة — شرا أى شر . وهناك واقعة يجدر بنا أن نشير إليها كمصريين ؛ فإن هذه الجدة لم تعلق كثيرا على احتلال مصر ، لا لشىء إلا لأن احتلالها كان راجعا إلى « جلادستون » وكانت هى معجبة به . ويقول رسل « إنه يذكر نقاشا دار بينه وبين مربيته الألمانية ، فقد قالت له : إن الإنجليز إذا دخلوا مصر ، فلن يخرجوا منها أبدا مهما أعطوا من وعود . ولكنه أصر عن عاطفة وطنية جياشة ، على أن الإنجليز لا يخلفون وعودهم قط . ثم يقول : وكان ذلك منذ سبعين سنة ، وما زالوا فيها لم يبرحوها » وهذا قول تروبه دون تعليق ، ولتضع أنت النقط فوق الحروف كما يقولون

لم يتلق رسل تربيته الأولى فى المدارس ، فلم يبعث به إلى المدرسة ، بل أحضر إليه المدرسون والمربيات . وقد أجاد على أيدى هؤلاء المدرسين ، اللغة الفرنسية والألمانية إجادة تامة ، وكثيرا ما كان يقلب وينقب فى مكتبة جده التى كانت حجرة دراسته كما يقول

وفى سن الحادية عشرة حدث له حادث أثر فى حياته كل التأثير ، أو هو الحادث الذى وجه حياته كلها ، والذى اكتشف فيه رسل ما يوافق هواه ؛ وهذا الحادث : هو أن أخاه الأكبر — وكان يكبر رسل بسبع سنين — أخذ يعلمه هندسة « إقليدس » — وكتاب إقليدس كان أفضل كتاب فى الهندسة — وقد سر رسل بذلك سرورا عظيما ؛ لأنهم قالوا له : إن إقليدس يبرهن على كل مايقول ؛ ولكن حينما بدأ فى تعلمه ، وجده يبدأ بالبديهيات التى يسلم بها بدون برهان ، فما كان من هذا الذهن الذى ركب تركيبا ، لا نقول رياضيا ، بل تركيبا يكاد يعلو على المستوى الرياضى ، إلا أن يشك فى هذه البديهيات ، ولا يقتنع بها ، ولكن أخاه أخبره أن لا فائدة إذن من تعلم الرياضة إذا لم يسلم بهذه البديهيات ، فسلم بها مكرها . ومع ذلك فقد وجد فى الرياضة لذة لأنها أقرب الحقائق إلى الثبات ، ولكنها ليست مع ذلك ثابتة ، ومن هذا الحين أخذ يتعمق فى درس الرياضيات التى ستؤديه إلى منطقه التحليلى الذى سيفتح به المشاكل الفلسفية.

فها هو ذا عقل يشك فى كل شىء حتى فى الرياضيات . ويطلب لكل شىء برهانا حتى البديهيات !

واستمر الصبى الصغير يتربى على أيدى المربيات الألمانيات والسويسريات ، وأخيرا ، على أيدى المدرسين الإنجليز . وحينما بلغ الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره ، أخذ يديم النظر والتفكير فى أمر الدين ، ويتساءل لماذا هو مسيحى ؟ بل لماذا يؤمن بالدين ؟ وأين البرهان الذى يجعلنى أؤمن به ؟ وأخذ يطيل التفكير فى أمر الإرادة الحرة « Free Will » والخلود، والله . أما الإرادة الحرة فرفضها لأنه اعتقد أن حركات الأحياء كلها تسير تماما بنفس القوانين الديناميكية التى تسير بها المادة ، وحينئذ فلا وجه هناك للإرادة الحرة ؛ ثم نبذ الاعتقاد فى الخلود ،

ولكنه ظل مستمرا في الإيمان بالله ، لأن دليل العلة الأولى ظل حافظا مركزه أمامه

وفي هذه الأثناء لم يكن في طوقه أن يحدث أحدا من أقاربه بآرائه هذه ، وكان يكتبها في يوميات بالحروف اليونانية حتى لا يستطيع أحد أن يقرأها ولم يستطع أن يتحدث مع أحد في مثل كله هذه إلا مع مدرس « لا أدري » كان يعلمه ، ولكنه سرعان ما طرد خوفا من أن يؤثر فيه ، وظل يافعنا هذا يتألم أشد الألم ، ويعاني أقسى صنوف القلق والشقاء ، وهو يرى عقيدته الدينية تنهار لبنة إثر لبنة ، وقد عزا في هذه الأثناء شقاءه إلى فقده العقيدة الدينية ، وظل ثلاث سنوات يفكر في أمر الدين ، وقد تخلى عن عقيدته في الخلود ، ولكنه ما زال مؤمنا بالله إلى أن كان ووقعت يده — وهو يومئذ في الثامنة عشرة وقبل أن يلحق بكمبردج بقليل — على الترجمة الذاتية التي كتبها « جون استوارت مل » وقرأ فيها هذه الجملة « لقد علمني أبي أن السؤال : من خلقني ؟ لا يمكن الإجابة عنه لأنه يوحي في الحال بسؤال آخر وهو : من خلق الله ؟ » ومنذ هذه اللحظة تخلى رسل عن إيمانه بالعلة الأولى ؛ ولم يكن له حق في ذلك ، إذ أنه قاس الحاضر على الغائب ، والمخلوق بالخالق ؛ إذ أن الله الذي خلق لاينطبق عليه ما ينطبق على ماخلق ؛ لأنه هو الذي رسم للمخلوق خلقته ، وأجرى عليه قوانينه ، فلا وجه لقرن المخلوق بخالقه ، ولكنه نوع من تداعي المعاني الساذج الذي لا محل له في هذا المكان ، هو الذي يوحي بسؤال : من خلق الله ؟

وظل رسل يقرأ بشغف ونهم ، يقرأ الشعر والتاريخ ، يقرأ « لتنسون » و « بيرون » و « شلي » و « كارليل » ولكن الذي أغرم وأعجب به هو جون استوارت مل الذي وافق هواه ، والذي يعتبره رسل أباه الروحي وقد قرأ كل مؤلفاته وعلق عليها

وفي أكتوبر سنة ١٨٩٠ دخل رسل كلية « ترنتي » « Trinity College » بجامعة كمبردج وهناك وجد حالا رحبا ، وقوما يحدثهم فيما يهمه من مشاكل فيستجيبون له ويستمعون لقوله ، وتعرف على نخبة من الزملاء ، من بينهم الذي يهتم علاوة على دراسته المدرسية بالشعر أو الفلسفة أو السياسة أو الأخلاق ، وكثيرا ما كانوا يقضون الأمسيات أيام السبت ، يتناقشون إلى الهزيع الأخير من الليل ، ثم يجتمعون لتناول طعام الإفطار يوم الأحد ، ويقضون بقية اليوم سائرين يتناقشون ويتحاورون . ولقد كان من بين هؤلاء الأصدقاء فيما بعد أعلاما يعرفهم العالم الإنجليزي ؛ إلا أن أشهر هؤلاء الصحاب هو الفيلسوف الرياضي الإنجليزي « هوايت هد » الذي كان يومئذ زميلا بالكلية ثم محاضرا ، ولم تتوطد الصداقة بينه وبين رسل إلا فيما بعد حيث سيشتركان في إخراج كتاب في فلسفة الرياضة ، يعد في طليعة الكتب الهامة التي خرجت في القرن العشرين ، وكان في هذه الأثناء مهتما بدراسة الرياضة ، ثم قرأ « هجل » وآمن به

وكان رسل خجولا أول أمره ، منطويا على نفسه ، ولكنه ما لبث أن تفوق على أقرانه وعرف بذكائه وحصل على درجته في الفلسفة بامتياز وانتخب « زميلا » في كليته في خريف سنة ١٨٩٥ ؛ إلا أنه كان قد ترك كامبردج والحق بالسفارة البريطانية في باريس سنة ١٨٩٤ ومكث هناك بضعة شهور . وفي ديسمبر سنة ١٨٩٤ تزوج رسل زوجته الأولى وذهب هو وزوجته إلى برلين ، وقضيا هناك عدة شهور درس خلالها رسل الديمقراطية الاجتماعية الألمانية ، ثم قفل إلى إنجلترا حيث سكن هو وزوجه منزلا صغيرا في الريف ، واعتكف في صومعته هذه على دراسة الفلسفة . وفي سنة ١٩٠٠ زار مع صديقه « الفرد هوايت هد » المجمع الرياضي بباريس ، وقابل هناك تلاميذ الرياضي الإيطالي المشهور « بيانو » « Peano » (١) وكان لذلك أكبر الأثر على رسل ، إذ أنه أخذ من فوره يدرس مؤلفات بيانو ، ولم يمض كثير وقت حتى أخرج أول كتاب مهم له وهو « مبادئ الرياضيات » سنة ١٩٠٣ ، وشرع هو وهوايت هد في تأليف كتابهما المشترك المشهور « مبادئ الرياضة » وظهر الجزء الأول منه في سنة ١٩١٠

وفي تلك الأثناء كان يعيش عيشة غاية في البساطة ، ويعمل عملا دائبا ويرهق نفسه بكثرة الدراسة ، وقد انتقل هو وزوجته

---

(١) من المعروف أن رسل قد تأثر في دراسته الرياضية بيانو الإيطالي والرياضي الألماني فرج « Ferge » وقد تأثر فيه الأخير أكثر من سابقه، وقد سبق فرج رسل بالتحليل المنطقي ويقول رسل نفسه : إن منطق فرج الرياضي مبني على تحليل للأفكار المنطقية

إلى منزل صغير بجوار أكسفورد ، وكان بين الحين والحين يذهب إلى الخارج ، وبدأ يشارك رسل فى الشؤون العامة ويتخلى بعض الشئ عن دراسته الفلسفية ، اياق بنفسه فى أتون السياسة ، وينزل من برجه العاجى ليخوض غمار الحياة

وفى سنة ١٩١٠ اختير محاضرا فى كليته فى جامعة كامبردج

وما أن تلبد الجو بالغيوم ، وترقب الناس هبوب عاصفة حرب عالمية ، حتى عاودت رسل روح أجداده فاندفع إلى المشاركة فى شؤون السياسة ، ولم يستطع أن يستمر هادئا فى برجه العاجى بعد الآن وهو يرى بعينى رأسه شباب أوروبا يجمع ليساق إلى المجزرة فرمى بنفسه بين عجاج المعركة ، ووقف وحده فى الميدان — إلا من عدة أنصار قليلين — ينادى بكل قوته أن تقوا هذه الوحشية والبربرية ، ولا تشعلوا نار الحرب ، وحمل رسل لواء الحرب ضد الحرب

وفى تلك الأثناء ضاقت به الحكومة وغرمته مائة جنيه لأنه كان قد كتب كتيبا يصف فيه المسيحى الأول ذا الضمير الحى الذى يعارض المسيحية ، ولم يكن رسل يملك ما يؤدى به هذه الغرامة ، فبيعت مكتبته وفاء لهذا الدين ، واشتراها أحد الأصدقاء ، ولكن قد فقدت كتب قيمة من بين ما كانت تحويه مكتبته من رائع المؤلفات . وكانت الطامة الكبرى حين منعته كليته من أن يحاضر بها . ولكن جامعة هارفارد بعثت إليه تطلبه ، بيد أن الحكومة البريطانية رفضت أن تعطيه تصريحا بالسفر ، فما كان منه إلا أن عزم على أن يلقى سلسلة من المحاضرات العامة وقد نشرت بعد ذلك تحت عنوان مثل سياسية سنة ١٩١٨ ولكن السلطات الحربية منعته من إلقاء محاضراته . وفى سنة ١٩١٨ حكم عليه بالسجن ستة أشهر لأنه كان قد كتب مقالة فى السياسة ، وفى السجن كتب كتابه القيم « مقدمة إلى الفلسفة الرياضية »

وقد نظم له بعض الأصدقاء اكتتابا لإلقاء محاضرات فى لندن ، وكان نتيجة لهذه المحاضرات كتابه « تحليل العقل » سنة ١٩٢١ . وفى سنة ١٩٢٠ كتب كتابه عن البلشفية بعد أن زار روسيا زيارة قصيرة لكى يدرسها عن قرب (٢)

وفى خريف سنة ١٩٢٠ ذهب رسل إلى الصين محاضرا فى جامعة بكين فى الفلسفة . وفى الربيع أصيب بذات الرئة ، واستمر ثلاثة أسابيع فى سياق الموت ، حتى أن جرائد يابانية متسرعة أعلنت نبأ وفاته ، ولكن عناية الأطباء الألمان المتصلة ، أنقذت حياته من بعد موت محقق . وحينما عاد فى سنة ١٩٢١ تزوج زوجته الثانية « دور بلاك » وظلا يعيشان مما ست سنوات فى منزل صغير فى أشهر الشتاء فى « Chelsea » ولم تكن هناك من سبيل إلى كسب عيشه إلا الصحافة وإلقاء المحاضرات ، وكتابة الكتب الشعبية مثل « ألف باء الذرة » ١٩٢٣ و « ألف باء النسبية » ١٩٢٥ وفى « التربية » ١٩٢٦ . أما أشهر الصيف التى كان يقضيها قريبا من « Lands End » فقد قصرها على العمل الجدى والدراسات الشاقة مثل الطبعة الثانية من « مبادئ الرياضة » وكتابه « تحليل المادة » ١٩٢٧ وكتابه « على هامش الفلسفة » ١٩٢٨ و « التصوف والمنطق » ١٩٢٩ و « الزواج والأخلاق » ١٩٢٩ وقد ذهب إلى الولايات المتحدة ليحاضر هناك فى سنة ١٩٢٤ وسنة ١٩٢٧ . وفى سنة ١٩٢٧ أنشأ هو وزوجته مدرسة لتربية الأطفال

وفى سنة ١٩٤٠ (٣) قوبل منحه كرسيا فى سيتى كولج « City college » بنيويورك بعاصفة قوية من المعارضة لما عرف عنه من آراء أخلاقية متطرفة ، وقد أبطل تقليده هذا المنصب بواسطة المحكمة

وقد يعزى أسلوب رسل الشرق العجب ، إلى أنه لم يقاس ولم يخضع فى تعليمه لأسلوب التعليم « الكلاسيكى » فى المدارس العامة ، ولكن ذكاءه وثقافته وحبه للحقيقة وقدرته على العمل الشاق يبدو أنها فطرية فى بعضها ، ووراثية فى كثير منها

القاهرة — عبد الجليل السيد حسن

---

(٢) يقول رسل « قد وضع كثير من أصدقائى الأمل فى روسيا، ولكنى حينما ذهبت إلى روسيا السوفيتية فى سنة ١٩٢٠ لم أجد شيئا أرضى به أو أعجب له

(٣) وكان قبل ذلك بعام فى سنة ١٩٣٩ أستاذا للفلسفة فى جامعة كاليفورنيا